أدبيات

أبو الفضل بن شرف

الشاعر الفيلسوف

للأستاذ عبد الرحمن البرقوقي

[بقية ما نشر فى العـــدد ١٤٩]

فلما سمعها المعتصم لعبت بارتياحه وحسده بعض من حضر ، وكان من جملة من حسده ابن أخت غانم . فقال له : من أى البوادى أنت ، قال أنا من الشرق فى الدرجة العالية ، وإن كانت البادية على بادية ، ولا أنكر خالى ، ولا أعرف بخالى . فمات ابن أخت غانم خجلاً ، وشمت به كل من حضر . وهذا ابن أخت غانم العالم اللغوى أبو عبد الله محمد بن معمر من أعيان مالقة متفنن فى علوم شتى إلا أن الغالب عليه علم اللغة . وكان قد رحل من مالقة إلى المرية فحل عند ملكها المعتصم ابن صمادح ، وله تآليف منها شرح كتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى فى ستين مجلدا . قال ابن اليسع فى مغربه إنه حدثه بداره بمالقة وهو ابن مائة سنة وأخذ عنه عام ٥٢٤ ... وغانم خاله الذى يعرف به هو الامام العالم الأديب أبو محمد غانم بن الوليد المخزومى نسب اليه لشهرة ذكره وعلو قدره . ومن شعر الامام أبى محمد غانم هذا قوله — وقد دخل يوما على باديس بن حبوس صاحب غرناطة ، فوسع له على ضيق كان فى المجلس فقال بديها :

صيّر فؤادك للمحبوب منزلة ... سم الخياط مجال للمحبين

ولا تسامح بغيضاً فى معاشرة ... فقلما تسع الدنيا بغيضين

وقوله :

الصبر أولى بوقار الفتى ... من قلق يهتك ستر الوقار

من لزم الصبر على حاله ... كان على أيامه بالخيار

وقوله فى نكبة المعتمد بن عباد :

ومن الغريب غروب شمس فى الثرى ... وضياؤها باق على الآفاق

وقوله :

ثلاثة يجهل مقدارها ... الأمن والصحة والقوت

فلا تثق بالمال من غيرها ... لو أنه دُرٌّ وياقوتُ

وكل ذلك من الحديث النبوى الشريف : من أصبح آمناً فى سربه معافى فى بدنه ، معه قوت يومه ، فكأنما سيقت له الدنيا بحذافيرها . ومن بديع قول أبى الفضل بن شرف المترجم من قصيدة يمدح بها المعتصم بن صمادح :

لم يبق للجور فى أيامكم أثر ... غير الذى فى عيون النيد من حور

وأول هذه القصيدة :

قامت تجر ذيول العسف والحبر ... ضعيفة الخصر والميثاق والنظر

ومن هذه القصيدة فى وصف السيف :

إن قلت ناراً أتتنى النار منهبة ... أوقلت ماء أرى الماء بالشرر

ومنها فى وصف الدرع :

من كل ماذية أنثى فيا عجبا ... كيف استهانت بوقع الصارم الذكر[1]

(١) راجع القصيدة فى القلائد

والأسى يقطر من فؤادى ، أننى لما زرت القاهرة لأول مرة كان الناس يدهشون إذ يرون رجلاً أجنبياً يتكلم العربية الفصحى ، مع أنه أمر مألوف فى الأوساط الألمانية والانجليزية ، ويندر أن تجد واحداً يتلفظ بكلمة واحدة دارجة

فليكن فى ترجمة القرآن إذن ، رفع لقدر اللغة العربية ، وليكن رفعها الى مستوى الكتاب ، فالقرآن هو مصدر الثقافة الاسلامية وسبب انتشارها فى الشرق والغرب ، وهو السلاح الماضى الذى يحسم الداء

لقد كان انجيل لوثر سبباً فى رفع شأن اللغة الألمانية ، وسبيلا الى ادماج لهجات القبائل المختلفة بعضها فى بعض ، فيجب أن تكون ترجمة القرآن الكريم سبباً فى رفع العربية ، وليرع الأزهر هذه الحركة الجديدة بكل ما فيه من عزيمة وقوة حتى تخرج الى حيز العمل . فقد كان القرآن كلمة الله فى البداية ، ومنها انبعث كل ما فى الاسلام من محبة واخوة وسلام

(بورايت) عبد الكريم جرمانوس

وكان قد وفد على المعتصم مرة يشكو عاملاً ناقشه فى قرية بحرث فيها وأنشده الرائية المذكورة . ولما بلغ قوله : لم يبق للجور فى أيامكم أثر . قال له المعتصم : كم فى القرية التى تحرث فيها ؟ فقال : فيها نحو خمسين بيتاً ، فقال : أنا أسوغك جميعها لهذا البيت الواحد ، وعزل عنها نظر كل وال ... ومن شعر أبى الفضل بن شرف : —

يا من حكى البيدق فى شكله ... أصبح يحكيك ويحكيه
أسفله أوسع أجزائه ... ورأسه أصغر ما فيه

وقال : —

لعمرك ما حصلت على خطير ... من الدنيا ولا أدركت شيئا
وها أنا خارج منها سليبا ... أقلب نادماً كفاً بكفا
وأبكى ثم أعلم أن مبكا ... ى لا يجدى فأمسح مقلتيا
ولم أجزع لهول الموت لكن ... بكيت لقلة الباكى علينا
وإن الدهر لم يعلم مكانى ... ولا عرفت بنوه ما لديا
زمان سوف أنشر فيه نشرا ... إذا أنا بالحمام طويت طيا
أسر بأننى سأعيش ميتا ... به ويسوءنى إن مت حيا

ويروى له : —

ألحاظكم تجرحنا فى الحشا ... ولحظنا يجرحكم فى الخدود
جرح بجرح فاجعلوا ذا بذا ... فما الذى أوجب جرح الصدود

وأرسل اليه الشاعر ابن اللبانة بأبيات يواسيه بها ويحثه على النهوض وهى : —

يا روضة أضحى النسيم لسانها ... يصف الذى تهديه من أرجائها
ومن اغتدى ثم اهتدى لطريقة ... ما ضل من يسعى على منهاجها
طافت بكعبتك المعالى اذ رأت ... أن النجوم الزهر من حجاجها
شغلت قضيتك النفوس فأصبحت
مرضى وفى كفيك سر علاجها
هلا كتبت إلى الوزير برقعة ... تصبو مع اطفه إلى دياجها
تجد السبيل لهم ولا تك للعنى ... وينير سميهم بنور سراجها
أنت السماء فما بها لك رفعة ... طلعت عليه الشهب من أبراجها
وضحت مفارق كل فضل عنده ... فاجعل قريضك درة فى تاجها

فكتب اليه المترجم :

يا منجدى والدهر يبعث حربه ... شعثاء قد لبست رداء عجاجها
لله درك إذ بسطت إلى الرضا ... نفساً تعادى الدهر فى إحراجها
وأرقت ماء الود فى نار الأسى ... كالراح يكسر حدها بمزاجها
فيأتينى تلك الغمام فبردت ... من غلة كالنار فى إنضاجها
فأويت تحت ظلالها ووجدت بر ... د نسيمها وكرعت فى ثجاجها
قل كيف تنعش بعد طول عثارها ... أم كيف تفتح بعد سد رتاجها
لأزيد فى أمرى وضوحا بعد ما ... قامت براهين على منهاجها
فأكون إن زدت الصباح أدلة ... خرقاء تمشى فى الضحى بسراجها
دعنى أبرد بالقناعة غلة ... يأس النفوس أحق فى اثلاجها
بكر بخلت على الأنام بوجهها ... ومنعتها من ليس من أزواجها
وصرفتها محجوبة بصوانها ... مثل السلوك تصان فى أدراجها
كالنور فى أكمامها والبيض فى ... أغمادها والغيد فى أحداجها
فالنفس إن ثبتت على أخلاقها ... أعيا على النصاح طول لجاجها

وإنك لترى للمترجم له مع ذلك رسائل[1] بديعة أنيقة الوشى حسنة التحبير ، تنم على دقة حسه البيانى ، وذوقه الفنى ، وتفننه فى جميع فنون المراسلات والمراجعات ، وأنه محسن فى جميع فنون الأدب إحسانه فى الطب والحكم ، فهو شاعر كاتب حكيم طبيب ، ولا جرم أنه انحدر من صلب ذلك الأديب العبقرى ابن شرف القيروانى الذى غمر ابنه هذا وأخاه حتى نحاله مؤرخو الأدب العربى فى عصرنا أكثر شعر ابنه

عبد الرحمن البرقوقى

(١) راجع هذه الرسائل فى القلائد

أيها المرضى بالبول السكرى
لا يمكن لكم أن تيأسوا من مرضكم أو تهملوه
قبل أن تجربوا الدواء الجديد
أنتيكومان !
فهذا الدواء موضع بناء على أحدث الأبحاث
العلمية الخاصة بهذا المرض .
اطلبوا البيانات اللازمة مجاناً من
جلاتهورمين . صندوق بوستة ٢١٠٥ مصر